التدين هو العلاج الأول للأدواء البشرية

من خصائص دين الاســـــلام

للدكتور محمد يوسف موسى الاستاذ بكلية الحقوق

(٣)

إذا كان التدين بالدين الحق هو الطريق الوحيد للخير والسعادة فى هذه الحياة الدنيا ، فما هى خصائص هذا الدين الحق ، وهو الاسلام ؟ وفى سبيل الاجابة على هذا السؤال لانرى من اللازم هنا أن نأتى بكل ما يمتاز به الاسلام عن الاديان السماوية التى سبقته فى الزمان ، ولهذا نرى أن نكتفى بالتحدث بايجاز عن هذه الخصائص الخمسة التى اختص بها الاسلام وحده ، وهو انه دين الوحدة ، ودين الوضوح ، ودين الحرية ، ودين الانسانية ، وهو لذلك كله دين ودولة .

١ ـ دين الوحدة :

نعم ! ان الاسلام دين « الوحدة » وليس دين « التوحيد » فحسب ، فقد أخذت كلمة « التوحيد » معنى خاصا لا تعدوه ، وهو القول باله واحد خلق السموات والارض وما بينهما ، واليه وحده يرجع الامر كلـــه . وذلك فى مقابلة القول بآلهة متعددة كما كان يرى المشركون ، أو بآلهة ثلاثة كمـــا يرى المسيحيون بعد تحريف التوراة والانجيل ، أو بآلهين اثنين كما كان يرى الثنوية فى فارس .

أما الاسلام فهو لا يدعو الى توحيد الخالق فحسب ، بل انه قـــام على « الوحدة » فى كل شىء : فى الناحية الالهية ، وفى الناحية الســـياسية ، وكذلك فى الناحية الاجتماعية ، الى غير هذه وتلك من نواحى العالم والحياة ، وسنخص كل من هذه النواحى الثلاثة بكلمة موجزة تبين لنا فضل ما أتى به الاسلام الذى ندعو جاهدين الى التدين الصحيح العملى به .

ففى الناحية الالهية ، أقام الاسلام الادلة القاطعة على بطلان عبادة آلهين أو آلهة متعددة ، وقرر فى كثير جدا من آيات القرآن أنه ليس الا اله واحد مالك الامر كله . ومن هذه الآيات قوله تعالى : « قل هو الله أحد . والهكم اله واحد . قل انما هو اله واحد . لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد » .

ولم يكتف الاسلام بتقرير هذه « الوحدة » فى الاله الذى يستحق العبادة بل قرر أنه وما سبقه من أديان سماوية « وحدة » واحدة ، هى رسالة من الله للبشرية عامة بعضها يكمل بعضا طبقا لسنة التدرج فى التعاليم والتربية ، وكلها يهدف الى غاية واحدة وان اختلفت وسائل الوصول اليها باختلاف الناس والأزمان .

وفى هذا نرى القرآن يقول فى سورة البقرة : « **قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** » . كما يقول فى سورة الشورى : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » .

ففى هاتين الآيتين ، وغيرهما كثير فى هذه الناحية ، دليل - أى دليل! - على أن الاسلام يعتبر رسالات الانبياء جميعا « وحدة » لا تحتمل التفرقة ، وأن من النتائج لهذا يكون الناس جميعا أمام هذه الديانات وأمام الله سواء ما داموا يؤمنون برسالة خاتم الأنبياء والرسل جميعا عليهم أفضل الصلاة والسلام . ولنسمع الى هذه الآية من سورة البقرة : « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » .

وهذا الأصل الذى تضمنته هذه الآية يقرر بصراحة أن الاسلام هو دين « الوحدة » نعنى الوحدة فى الدين ورسالات الله لأنبيائه ورسله ، وما يتبع هذا من الوحدة فى الحقوق والواجبات وفى المسئولية والجزاء .

وفى الناحية السياسية ، نرى القرآن يقول فى سورة الانبياء : « **ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » . كما نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على تكوين « وحدة » من الامة العربية وممن اتبعوا رسالته من غير العرب ، وذلك بعد أن كان العرب امارات وقبائل متعددة وبعضهم لبعض عدو . انه قد صنع منهم جميعا أمة واحدة حقا ، لها رئيس واحد ، وتتبع سياسة واحدة ، وتستهدف غاية واحدة هى نشر الدين الحق للانسانية جميعا ليكون هاديها الى الخير فى الدنيا والآخرة .

وكان من أثر « الوحدة » السياسية التى جاء بها الاسلام وعمل لها الرسول والمؤمنون ، انه لما لحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى واجتمع المسلمون لاختيار خليفة له ، رأى الانصار أن يكون الخليفة منهم أو أن يكون منهم أمير ومن قريش أمير ، فقال عمر الفاروق

عبقرية « لا يجتمع اثنان فى قرن .

وكان أن انتهى الامر بتولية أبى بكر وحده خليفة ، ثم صارت سنة متبعة، فلم يكن فى الاسلام الا خليفة واحد للأمة كلها فى ذلك العصر المجيد ، على اتساع الدولة الاسلامية وامتداد أطرافها ، وكان هذا محافظة على « الوحدة» السياسية . فأين هذا مما نحن عليه اليوم من تجزئة الامة العربية الاسلامية الى دول ، حتى صار فى كل بلد سرير ومنبر وعلم ! حاشا الجمهورية العربية المتحدة بحمد الله تعالى .

وبعد « الوحدة » السياسية ، ترى « الوحدة » الاجتماعيـة والتشريعية التى قررها الاسلام بلغت من الروعة حد العجب والاعجاب ، وصارت لهذا مضرب المثل تتحدى التاريخ كله والأمم جميعا .

ففى الهند مثلا ، وهو موطن ديانة من أقدم الديانات العالمية ولا تزال قائمة حتى اليوم ، نرى هذه الديانة البراهمية هى التى تفرق بين أتباعها ، اذ تقسمهم الى طوائف أربعة ، وتجعل فى الذروة البراهمة أو الكهنة ، كما تجعل فى الحضيض السفلة أو الانجاس ! وكان من الطبيعى أن يوجد لكل من هذه الطبقات تشريع خاص ، وحقوق وواجبات خاصة .

واليهود ، وهم أصحاب دين سماوى ، قد حجروا من رحمة الله الواسعة حين زعموا أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه ، وحين قالوا مع النصارى : لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ، وحين فرقوا فى تشريعاتهم بين الاسرائيلى وغيره على ما هو معروف .

أما الاسـلام فلم يفرق من الناحية الاجتمـاعية والتشريعية بين جنس وجنس ، أو بين طبقة وأخرى فى الأمة الواحدة ، بل جعل الجميع سواء فى الحقوق والواجبات ، فلا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى كما يقرر صراحة القرآن الكريم والرسول العظيم . واذن ، فلا تفاضل فى شىء ما بسبب الجنس ، أو النسب ، أو الغنى والجاه ، أو بسبب غير هذا كله مما تعارفه أبناء الديانات الاخرى مقياسا للقيم وأساسا للتفاضل بل العالم كله فى نظـر الدين الاسلامى ، من هذه الناحية أيضا ، « وحدة » واحده ، بحكمه شريعة واحدة ، لا فرق بين كبير وصغير ولا بين حاكم ومحكوم .

٢ — دين الوضوح :

والاسلام يتميز بعد هذا بالبساطة والوضوح فى عقائده ، وحسبنا فى بيان هذا أن نشير الى أنه لايأمر الا بعبادة اله واحد لم يتخذ ولدا ولا شريكا فلم يقل بآلهة متعددين متشاكسين كما قال « الثنوية » ، حين زعموا أن الحياة صراع دائم بين اله الخير واله الشر . ولا بأن الله ثالث ثلاثة كما يزعم المسيحيون . ولذلك ليس فيه شىء من « الاسرار » المسيحية التى لا يكاد أحد من رجال الدين أنفسهم يفهمها . ولهذا يطلبون من أتباعهم الايمان بها دون محاولة ادراكها ، ولكن هيهات !

وكذلك نرى الاسلام لا يجعل وسطاء بين الله وبين عباده من رجال الدين كما هو الأمر عند المسيحيين، بل ككل انسان يتجه لله مباشرة بعمله وبدعائه ورجائه ، وفى هذا جاء فى القرآن : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان** »

ومن ناحية أخرى ، نرى المسيحية تزعم أن الانسان قد ولد وهو مثقل « بالخطيئة الأصلية » التى كانت بسبب أبينا آدم عليه السلام حين عصى ربه ، فهو لا يستطيع منه فكاكا . وبذلك يحملونه وزرا لم يجنه ، ويجعلونه يعيش طول حياته رازحا تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة ، ومن ثم يطلبون منه أن يؤمن بعقيدة « الصلب والفداء » أى صلب المسيح — الاله » تفدية للبشر من ذلك الخطيئة ! وكيف يستطيع عقل أن يؤمن بأن « الاله » يتمكن منه أعداؤه فيصلبونه ، ثم يستغيث ولا مغيث له !

على حين يقرر الاسلام أنه ليس للانسان الا ما سعى ، وانه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن المرء يولد بريئا من كل ذنب وخطيئة ، وانه لن يحاسب الا على ما يعمل من خير أو شر ، وأن الله تعالى أمره هو القوى العزيز فلا يمكن أن ينال أحد منه .

ومن أجل ذلك نرى انه ليس بين الانسان وبين الاسلام الا أن يعتقد بالله واحد لاشريك له من أحد من خلقه ، وأن يؤمن برسله جميعا لا يفرق بين أحد منهم ، كما لا شىء يحول بين العقل العادى وبين الايمان بهذه العقائد وما اليها مما يقوم عليه الاسلام ، لانه لا شىء أوضح من ذلك كله .

٣ — دين الحرية :

ومن خصائص الاسلام أيضا أنه دين « الحرية » بكل ما تشمل من معان ومدلولات فى التفكير الغربى والتفكير العربى على السواء . وذلك بأن « أوجست كونت » يرى أن أحسن ما يكون لنا من حرية هو أن نستطيع العمل على سيادة الميول الطيبة على الميول السيئة . كما يرى « جيسون » أن الحرية فى سيطرة الانسان على نفسه بعمل العقل والارادة ضد الشهوة والهوى . وقبل هذا وذاك ، يقرر « ابتيتوس » أن على من يريد أن يكون حرا الا يخاف أو يرجو شيئا يملكه غيره ، والا فلن يكون حتما الا رقيقا . ونعلم بجانب هذا أو ذاك كله، أن من الحرية أن تحرر العقل والفكر من الضلالات والتقاليد الباطلة التى لا سند لها الا سلطة الآباء ونفوذ الاجداد والاسلاف، كما تشمل حرية الارادة والعمل ما دام ذلك لا يضر بالغير ولا بالصالح العام .

تلك هى المعانى والمدلولات الجديرة بالذكر لكلمة « حرية » فى التفكير الغربى والعربى ، والاسلام قد جاء بتقدير هذه « الحرية » على كافة ضروبها وألوانها . وذلك بما دعا بقوة اليه من نبذ ما كان عليه الآباء والاسلاف

من عقائد وتقاليد لا تتفق والتفكير الحر والعقل السليم . وبما لفتنا بقوة اليه من أنه ليس من العقل أن يستذل القوى الضعيف ، وفى هذا نرى سيدنا عمر بن الخطاب يقول : لم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !

ثم ، نجد الاسلام ينعى بشدة على من اتخذ الهه هواه ، وجعل شهواته تسيطر على عقله وهو أكرم عنصر فيه ، وذلك بأن الحرية الحقة فى حرية الانسان هى ألا يستعبده هواه وغرائزه وشهواته ، فلا ينزل فيما يأتى ويذر الا على حكم عقله الرشيد .

ومن عناية الاسلام بالحرية فى ناحية العقيدة ، أنه جعل رسوله هاديا ومبشرا ونذيرا فحسب ، ولم يجعل له سلطانا على أن يكره أحدا على الايمان برسالته . ولا أدل على هذا من قول الله تعالى : « **لا أكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » ، وقوله : « **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » !

٤ - دين الانسانية :

قبل الاسلام كانت الديانات السماوية السابقة ديانات « محلية » ، فكان الرسول يرسل الى قومه أو أهل بلده خاصة ، فلم يخطر ببال رسول من أولئك الرسل أن يتجاوز بدعوته غير قومه . ولهذا نجد القرآن يقول : « **ولقد أرسلنا نوحا الى قومه** » ، « **والى عاد أخوهم هودا** » ، « **والى ثمود أخاهم صالحا** » ، « **والى مدين أخاهم شعيبا** » وهكذا .

أما الاسلام فهو الرسالة الالهية من السماء الى الارض ، ولهذا وجب أن يكون دينا عالميا للانسانية جميعا ، ومن ثم ، لم يأت بعده دين سماوى حتى اليوم ، ولن يأتى أبد الدهر . ولهذا أيضا ، وجب أن يكون فى طبيعة هذه الرسالة ما يجعلها حقا صالحة للانسانية فى كل جيل وعصر وزمان ومكان ، وأن يكون فى شخصية رسولها العظيم ما يجعله الرسول المصطفى للناس جميعا ، فيجد كل انسان فيه مثله الأعلى الذى يكون دليل الحياة ومنارته التى يهتدى بها .

والقرآن صريح فى بيان أو تقرير « عالمية » الاسلام ، فهو يقول : « **وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » ، « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » كما يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتوجه برسالته لجميع الأمم ، لا للعرب وحدهم ، بقوله : « **يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** » .

وقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يدرك كل الادراك المهمة العظيمة التى ألقاها الله على عاتقه ، ويعمل ما يستطيع لتبليغ رسالته . فهو يرسل دحية الكلبى الى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمى الى خسروا أبرويز كسرى الفرس ، كما يرسل رسله الى النجاشى ملك الحبشة

والى الحارث الغسانى أمير الشام ، والى المقوقس عزيز مصر ، وهكذا يرسل الرسل الى الملوك والامراء يبلغهم دعوته العامة الشاملة ، ويدعوهم الى الاسلام وما جاء به من هدى ونور للانسانية جميعا .

٥ — دين ودولة :

وأخيرا ، ومن أجل أن الاسلام دين عالمى للانسانية كلها وأن الله شاءت قدرته وحكمته أن يكون هو الرسالة الالهية الاخيرة للانسانية كلها ، لم يترك أمته يتخذون ما شاؤوا من قوانين تحكمهم فى كل أفعالهم وتصرفاتهم فى شتى نواحى الحياة ، بل جاء بالنظم والقوانين التى يقوم عليها المجتمع ولا يصلح الا بها فى كل زمان ومكان ، لا فرق بين أمة وأخرى .

وذلك بأن الاسلام ليس عقيدة دينية فقط ، ولا نظاما أخلاقيا فحسب ، بل هو « دين ودولة » بكل ما تتسع له كلمة « دولة » من معانى ومدلولات . ان الاسلام نظام شامل بلا ريب ، فهو يحكم الانسان وتصرفاته وأعماله فى كل حالاته ، فى خاصة نفسه ، وفى صلته بالله تعالى ، وفى علاقاته العديدة المختلفة بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى علاقات الدول الاسلامية بالدول الاخرى . انه ينظم كل هذه الاحوال والعلاقات ، وذلك ببيان القواعد والقوانين والنظم التى تهيمن عليها وتحكمها على اختلاف أنواعها .

ومن الحق أن الشريعة الموسوية قد جاءت بالقليل من قواعد المعاملات وأحكامها ، ولكن جاء فى بعضها مالا تصلح به الا لليهود غلاظ الاكباد والقلوب ، فجاء الاسلام وخفف من شدتها ،ووسع ما ضاق منها ، وزادعليها ما كان ينقصها .

وبذلك يكون الاسلام قد جاء بما يصلح حقا أن يكون قوانين كاملة لقيام الدولة على أسس قوية معقولة ومقبولة ، ووافية بحاجات أى مجتمع فى أى عصر من العصور . وبذلك أيضا لم تكن الأمة بحاجة الى اقتباس القوانين من أية أمة أخرى ، على خلاف ما نرى عند اليهود والمسيحيين من حاجتهم الى أخذ قوانينهم من الامم الوثنية كالرومان ، وذلك لخلو كتبهم المقدسة من القوانين الصالحة لبناء أمة ودولة .

والآن ، ننتقل الى بيان أثر التدين بالدين الحق ، وذلك لبيان أنه لايكفى أن يكون لنا دين حق ، بل الواجب أن نتدين حقا به ونعيش طبقا لأسسه وتعاليمه . نعود بذلك الكلمة الآتية ان شاء الله تعالى .